

في قداسة الكنيسة

الاب ارمند اودين ، احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس
 و ما هي القداسة الواجب ان نتاز بها كنيسة المسيح ؟ - ٢ هل توجد هذه القداسة ،
 في الكنائس المنفصلة عن الكتلكة ؟ - ٣ وجودها وسطوعها في الكتلكة . - ٤ رد الاعتراضات .

٣

وجود القداسة في الكتلكة

اول الشروط اللازمة لقداسة جماعة ، هو ان يكون فيها تعليم يسوع
 المسيح محفوظاً ، ليس على صفحات الكتب فحسب ، بل في العقول والقلوب
 ايضاً ، بحيث يكون مدروساً ومفهوماً جيداً ، وتكون قضاياه بمنزلة قواعد
 يعمل بموجبها . فانظر ، ايها القارئ اللبيب ، الى الكنيسة الكاثوليكية واحكم
 هل هذا الشرط محقق فيها ام لا ؟ انظر ما بذله الاحبار الرومانيون ، منذ
 القديم الى ايامنا هذه ، من شديد العناية ليعلموا كل تعليم باطل فاسد عن
 الانتشار بين المؤمنين . انظر كثرة معلمي اللاهوت ومفتري الاسفار المقدسة ،
 الذين وقفوا معظم حياتهم على استقصاء الحقائق المرحاة ، وتبيين نتائجها والمجامة
 عن صحتها . انظر بآية حمة ومراغبة يجتهد اخوانه في تهذيب الصغار الديني ،
 وفي صيانة ايمان الكبار بما يلقونه عليهم من المواعظ والارشادات الروحية .
 انظر عدد المجالات الدينية التي جعل غايتها تكميل ما احزته القراء من معرفة
 الامور الالهية ، وتفنيد ما يسمعون او يخطر على بالهم من حجج الاعتراض
 والارتباب . هذا ما زاد جارية في الكتلكة في ايامنا اكثر من ذي قبل ، مع
 ان مصباح العلم اللاهوتي لم ينطفئ قط في حشنها . فاي الجماعات المنفصلة
 تتجاسر على المقابلة بينها وبين الكتلكة من هذا القبيل ؟ وماذا يجوز ان
 نطلبه ، فوق ذلك ، نقول : ان ائمة الكنيسة الرومانية حافظت بتام الامانة
 على وديعة التعليم الالهي ؟

(صحيح عبارته . ونبي بشره القس اسطفان فرحات اللباني .

ننتقل هنا الى ذكر شيء مما تزدان وتفتخر به الكثرة من جواهر الفضائل الثلاثة في سير قدسيها . فما اكثر هؤلاء عدداً ! وما اسمى درجة الكمال الأدبي التي بانها فيهم الطبيعة البشرية ! وما اعجب ما باثروا من الاعمال العظيمة التي تذهل كل من يتصفح التاريخ ، وتحمل كل انسان على الاقرار بها . ومن يستطيع ان يحصي الذين حبوا انفسهم في الاديرة ليصيخوا هناك عيشة ساهرة . والذين خصصوا حياتهم لآعمال المحبة والغيرة ، كعلاج المرضى ، واسفاف الساكنين ، وتربية الاحداث ، اولئك الذين يفنون قواهم في سبيل الخير ، افناء مملوياً . فاذا حملهم على تلك التضحية بذواتهم يا ترى ، ألم يكن حب المسيح ؟ وماذا نقول عن بسالة المرسلين الذين يغادرون اوطانهم المحبوبة وامهاتهم الاعزاء ، ويتجهون الى اقطار مجهولة ، حيث لا يتوقعون سوى حياة كلها اخطار واتعاب وعوز وشقاء ؟ وربما انتهى بهم الامر الى الموت تعذيباً . هذا ، على ان الامر لا يتوقف عند هذا الحد منع هؤلاء الابطال فحسب ، بل كثيراً ما نرى مثله في الكهنة الذين لم يدعهم الله الى الاستشهاد في بلدان الوثنيين والمهجين . فانهم يضجون براحتهم وبكل غالٍ ونفيس لديهم في سبيل خدمة الدين الحقيقي ، دون ان يتوقعوا عليها ادنى جزاء ، بل كثيراً ما يفسد الناس نعمهم ، ويبادلونهم الخير بالشر ، ويوغرون عليهم الصدور ، ويقذفونهم بكلام الهزء والسخرية . اما هم فيحتلون ذلك بصبر جزيل ، عملاً بوصية السيد المسيح ، لاسه السجود : « طربى لكم اذا عيروكم ، واضطهدوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة كاذبة . فحينئذ سربوا وافرحوا . . . » هذا هو سلوك الاكليروس الكاثوليكي . وانه اليوم كما كان في الامس . فمن ينكر ان في هذا دليلاً جلياً على قداسة الكثرة ؟

لقد اشرنا الى ما كان ، ولم يزل نصياً لبعض الكهنة والمؤمنين ، من الاضطهاد . فيحسن بنا ألا نضرب صفحاً عما في ذلك من زيادة ايضاح واثبات اقداسة الكثرة ، ولكونها هي كنيسة المسيح الحقيقية . لذلك نقول :

١. ان يسوع المسيح نفسه انبا تلاميذه بان العالم سينفضهم ويجاريهم بشدة وقساوة ، ويفرغ قصارى جهده ليطفى مصباح الحق الذي يسمون في نشر ضوئه . واننا زى ان هذه النبوة لم تزل تتحقق في جماعة الكاثوليك دون سواها ، وذلك من عهد الرسل حتى ايامنا هذه . اذا فما هذا الا دليل واضح على ان الكتلكة هي الجماعة التي أسسها المسيح ووجه اليها كلامه ، في شخص تلاميذه الاولين .

٢. يجب ان تتشبه كنيسة المسيح بمذنها ورأسها ، كل التشبه الممكن . وهذا ما يتم بكونها عرضة للاضطهاد . فان يسوع نفسه كان هدفاً لكراهية العالم ومعارضة الحشاش . مع انه لم يأت إلا لخلاص البشر ، والاحسان الى الجميع . وكذلك كنيسته قد تمين عليها ان تسمى دائماً الى خير البشر ، ليس الروحي فحسب ، بل الزمني ايضاً . وهي التي تقام الناس ان يتحايروا ويتأخروا ويتمارنوا ، وتجتهد في تخفيف اوجاعهم ، وسد حاجاتهم ، ومع ذلك لها دائماً خصوم الداء ، يتحالفون على اهلاكها . وتقدر ما يؤيدونها بذلك مائة يسوع المسيح ، يبرهنون على كونها كنيسته الحقيقية .

٣. ان البغض الذي عنى به السيد المسيح لا سبيل الى تعليله الا بالقول : ان اصله هو روح الكبرياء . والحجث الذي كان ابليس اول ابن له . فهذا الملاك الساقط هو الذي يستخدم المناقطين اعوانه كآلات لاضطهاد الكنيسة . كما حرك اليهود قديماً على رفض المسيح وصلبه . وقصده هو واحد في كل آن ، اي ملاءمة ملكوت الله . فلماذا لا يضطهد هو وخدامه بقية الكنائس ، كما يضطهدون الكنيسة الكاثوليكية ؟ . أليس لعلمهم ان هذه هي دون سواها ، جسد المسيح السري ، وملكوت الله على الارض ؟

٤. لان ديمومة الكنيسة ، بالرغم من تلك المحاربة العنيفة ، وما ظهر من الجرأة والبسالة في الوف من الشهداء ، ابناء الكتلكة الذين ختموا ايمانهم بدمائهم ، انما يثبتها اعجوبتان هيتان ، لا ينسبهما عاقل الى القوى البشرية ، بل يقر ان هناك يد الله القادرة على كل شيء . فالجماعة التي لا تزال هاتان الآيتان تلمعان فيها على مرأى كل انسان ، هي موسومة بنجم المحي . واذن

فهي عروس يسوع المسيح الحقيقية . وزد على ذلك ان الله لا يفتأ يجري في الكـلـكة معجزات كثيرة تكميلاً لاعلان قداسها . ومن هذه المعجزات ما يحدث في بعض المزارات المشهورة التي اختارها الله لتكون مواضع التقاء للزوار الاتقياء الآتين اليها من مختلف الاقطار . ولنا من شهادات الكثيرين على ذلك ما ينفي كل مجال للارتياب في صحتها ، وكثيراً ما يجري اطباء ماهرون فحص بعض المرضى ، الذين لم يكونوا ليشفوا من امراضهم بأي نوع كان من العقاقير ، فيفضي الفحص الى تحقيق كون الشفاء اكيداً وتاماً ، واذن فهو باعجوبة يضطر ارباب العلم الى الاعتراف بها .

وفضلاً عن تلك المعجزات ، ان الله يصنع غيرها ايضاً ، مكافأة لايمان من يستشفعون بهض اوليائه ، الذين يشاء تعالى ان يعلن قداسهم ، ويزيد المؤمنين ثقة بمجاهتهم . ولتحقيق هذه المعجزات قد ألف الاحبار الاعظمون جمعية وكلوا اليها اتخاذاً كل ما يستطاع من التدابير المفيدة لابعاد اسباب الفسـ والرائ . فتارة يسفر البحث عن عدم ثبات بعض ما فشا خبره من الحوادث المجانبية ، وطوراً بالنكس ، فانه ينتهي بكون الاعجوبة مؤكدة ، بحيث لم يبق لانكارها من سبيل . وعدد ما اثبت بهذه الطريقة من الاعاجيب يحصى بالملئات بل بالالوف ، وما زال يزداد كل حين . فها هذا الا ختم الله تعالى المصدق على بها . فضائل قديسه ، وقداسة كنيسته الحقيقية .

٤

رد الاعراضات

رب قارى' ينال اليه ان ما قلناه عن غير المرسلين ، وتقاني من خـصـوا حياتهم لاعمال المحبة ، ليس بكافٍ لاثبات قداسة الكـلـكة ، لانه يغزو مثل تلك المفاخر عند البروتستانت ايضاً . فانهم نشروا رسالاتهم في نواحي المسكونة كافة ، لا بل انشأوا من المدارس والمباني والمستشفيات ما يفوق المؤسسات الكاثوليكية .

نعم ، ايا القارى' العزيز ، انك اذا لم تعتبر سوى كمية المال المنفقة ، وعدد

الابنية وكثرة المستخدمين فيها ، ووفرة ما هنالك من اسباب الرفاهية ، فانت صادق ؛ ان المؤسسات البروتستانية تفوق المؤسسات الكاثوليكية تفوقاً محسوساً . ولكن ، يا رعاك الله ، قابل بين الطرفين ، بالنظر الى ما يارس فيهما من الفضائل المسيحية ، وخاصة من التضحيات بالذات والتجرد عن المنافع الزمنية والتسلية البشرية ، يظهر لك تطلب الكثلكة على تلك لا محالة لان الذين يشتركون في اعمال البروتستان المذكورة قلماً يحركهم اليها روح الكفر بالذات ، وان مساعيهم لا تخلو من التعلق بالاغراض الدنيوية ، وبكثرة المال . ومعلوم ان بالمال جميع اسباب الرغد والهناء ، ومع هذا ، لا سبيل للتضحية وبذل النفس . فهيات ان يكون في رسالات البروتستان وسائر مشاريعهم شيء يدل على انهم يساوون او يسابقون الكثلكة في القداسة ، بل بالعكس . فان اختلاف الثمار التي تأتي بها كلتا الشجرتين يوضح جلياً ان حياة هذه ، اي البروتستانية ، لا تتعلق الا بالمبادئ البشرية ، اما الاخرى ، اي الكثلكة فلها حياة تفوق الطيبة ؛ ولا يقدر على اعطائها وصيانتها سوى الروح الالهي ، الذي وعد السيد المسيح بانه يستقر ويمتل في كنيسته على الدوام .

الا ان بعض خصوم الكثلكة يعترضون على قداسها قائلين : ان فيها عيوباً تضاهي تماماً ما في سائر الجماعات البشرية من الشوائب . فليست اذن الكثلكة افضل واقدس مما سراها من الجماعات . ولتأييد قولهم هذا يوردون ما يجبرنا به التاريخ عن سوء سلوك بعض الاساقفة والبابوات ، ويشكون عموماً من شائبة الكبرياء ، زاعمين انها هي التي اقتادت الاحبار الرومانيين الى الادعاء بالرئاسة على الكنيسة برمتها . ثم ينحون باللوم على رزسا . الكنيسة بانهم اعتادوا الفخفة والرفاهية في عيشهم ، خلافاً للفقير الذي اتخذه ينوع المسيح نصيباً له ، واوصى تلاميذه بالمحافظة عليه ؛ ويذكرون اخيراً ما نجم من المآثر عن سلوك بعض الكهنة والرهبان ، وكان الواجب عليهم ان ينيروا الجميع بضياء قداسهم . فبعد ما جمعوا كل تلك الشكاوي ، كأني بهم يتفنون هتاف المنتصر ويسألون : اين قداسة الكثلكة ؟

فندكرهم اولاً بما قلناه في القسم الاول من هذا المقال من ان الكنيسة

هي جماعة بشرية ، خلق افرادها من طينة آدم ومثاله . واذن فلم يكن ممكناً ، ان يخلوا بما في الناس من الشوائب . وانه ولئن كان علمنا الرسول : « ان المسيح احب كنيسته وضحى بذاته لاجلها ، لتصير جماعة كاملة كلية الطهر » ، فهذا الكلام يدلنا على منتهى الكمال الذي تجتهد الكنيسة في الاقتراب منه . امّا حصولها التام عليه ، فلا يكون الا في الحياة الابدية .

ثانياً : فيجب ان كثيراً من الصوب والقبائح التي عزاها خصوم الكنيسة الى رؤسائها واكليسها قد برهن التاريخ الحقيقي على عدم صحته . لذلك يجب التمييز بين الصحيح منها والملقى تلفيقاً ، مما يكتبه اولئك الخصوم بهذا المعنى ، او يتقلونه نقلاً عن روايات كاذبة ليس غايتها سوى الاقتداء على الكنيسة الكاثوليكية واتهامها بالعار .

ثالثاً : اننا ننكر ما يقال : ان البابوات يتشامخون ويطمعون في الرئاسة . فان سلطتهم العامة ليست اختلاصاً . بل 'ولام اياها يسوع المسيح ، في شخص بطرس الرسول ، الذي اتابه عن ذاته ، كما يتضح من المباحث اللاهوتية المتعلقة بصورة الجماعة الكنسية . فكان اذن من الواجب على الاحبار الرومانيين ان يحافظوا على تلك الولاية التي ورثوها من بطرس ، ون يدروا عنها كل من تعصب ضدها ، من مبديي الشيع ؟ ولو انهم اهملوا ذلك ، لما كان منهمجهم هذا تواضعاً وتساملاً ، بل جبانة وخيانة .

رابعاً : ان ما ينحي به الخصوم بالوم على رؤساء الكنيسة لابتعادهم عن روح البساطة المسيحية والاقتداء بفقر الرسل ، فما كنا لننكره عليهم ، لو انهم كانوا حصروه في بعض الرؤساء . اما وانهم اطلقوه على الجميع ، فانه مردود . وبالتالي اننا نحصره في بعضهم ، بمن لا ننكر انهم افراطوا في حب البذخ وسعة العيش . ومع ذلك فقد اتخذوا هذه الوسائط الملموسة من المجد الظاهر ليظهروا سمو عظمتهم ، وشرف مقامهم للغير ، فيؤديهم الاحترام الواجب ، والاعتبار اللازم . لاسيما وان الكنيسة هي جماعة كبتية الجماعات . واذن فما دام هذا شأنها ، وجب ان تتخذ مثل هذه الوسائط لصيانة سلطة رؤسائها . وربما كان هذا مبرراً لأولئك الرؤساء طالما كانت هذه غايتهم ، من المجد الظاهر .

غير اننا لا ننكر انه قد وجد بين الكليروس في خلال بعض الصور ، من استسلم للشهوات والاميال البشرية الساقطة ، الا انه لا يمكن لاديب عاقل ان يطلق هذه الحال على كل جماعة الكنيسة . بل لا شك في انه يمحصرها في الافراد الذين تورطوا فيها . اما الشريعة الالهية فلن تزال الكنيسة محافظة عليها شديد المحافظة ، وتنادي بوجوب الامثال لها ، والاذعان لمبادئها المقدسة . واما تلك الميوب فهما كثرت وقيحت نشأتها فلا يمكن ان تحجب سطوع فضائل القديسين ، ومحامد الصديقين . ويجب ان لا ننسى ان هذه تفوق جداً قيمة وكثرة ما يبدو منها لآعين الملائ . لان اصحاب التقوى يوثرون عادة ان يارسوا الفضيلة ويباشروا اعمال البرّ خفية ، بحيث لا يطلع على مآثرهم العجيبة سواه تعالى . ومع ذلك اذا اعتبرت ، يا هذا ، ما يرد في تاريخ القديسين من طهارة اخلاقهم ، وجمال اعمالهم ، وغزارة مواهب الروح القدس في انفسهم ، اضطرت الى الاعتراف بان اللآلئ التي ازدانت بها عروس المسيح تفوق ما لم يزل في بعض اعضائها ، من آثار الضعف ، وضروب الفساد ، التي تتلد لا محالة من الطبيعة البشرية الساقطة .

ولا يفتك ايضاً معرفة ما لا تنفك الكنيسة عن بذله من الجذل في استئصال تلك القراس الحبيثة . فانها لا تملّ عن تنبيه الضالّين ، وحضّ الخطاة على التوبة ، وتنظيم الرياضات الروحية ، وتحريض المؤمنين على التأملات الخلاصية ، وتنشيطهم في الصلاة وفي فحص الضير ، وقبول الاسرار . وما هذا كله الا ملح فعال يمت جرائم الفساد ، ويصون الحياة الالهية ، في الآنية البشرية الواهنة .

فجدا لو شاهدنا شيئاً من هذا الاعتناء والاجتهاد في الجماعات الغير الكاثوليكية ، بحيث يجوز الظن ان النفوس ، هناك ايضاً ، تعالج بمثل تلك الادوية الروحية ، لتبرأ من امراضها النفسانية ؛ وتندقي في سلم القداسة لتصل الى حيث تحصل الكنيسة نفسها على كمالها النهائي ، وقام اتحادها بعريسها ، ورأسها يسوع المسيح الذي له المجد ، الى الابد . امين !

